آفاق المعرفة



محي الدين بن عربي ونظريات الخيال المعاصرة

جهينة علي حسن *

يتكئ النقاد العرب المعاصرون أثناء حديثهم عن الخيال على نظرية «كولردج» ويعودون إليها كثيراً، خصوصاً في أفضل شروحها عند «ريتشاردز» بحيث لا يخلو كتاب نقدي عربي يتطرق إلى موضوع الخيال من إشارات إليها، وبمقدار التركيز على كتابات الأب الحقيقي لنظرية الخيال الحديثة، يتجاهل النقاد الإضافات الكبرى التي قدمها مفكر وشاعر عربي يجوز لنا أن نعتبره بدون مبالغات، من أكبر المساهمين في صياغة نظرية الخيال بشكلها المعروف في النقد الغربي،

* باحثة في الأدب العربي (سورية)
- العمل الفني: الفنان مطيع علي



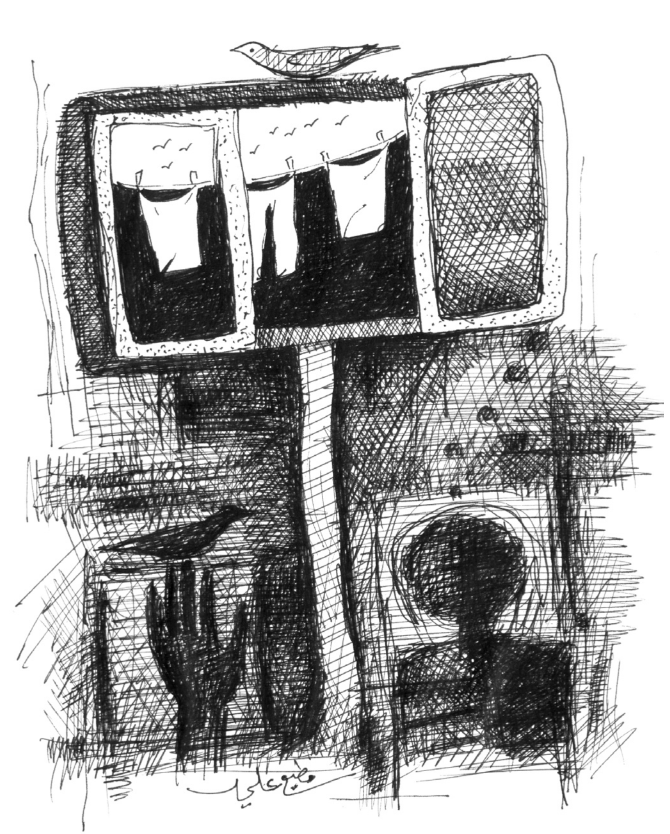
بحيث يستغرب الباحث مواطن الشبه الكبيرة والكثيرة بين ما كان يقدمه محي الدين بن عربي قبل عدة قرون وبين ما جاء به «كولردج» و«رامبو» و«بودلير» وأصحاب فكرة الخيال الإجمالي كـ «كلودبر نارد» و«باستير» وغير ذلك من النظريات المعروفة في القرنين الأخيرين.

دراسات الخيال

وقبل أن نوغل في هذا البحث الشائك: يفضل أن نلاحظ أن هناك إشكالية لغوية أولية في دراسات الخيال بالعربية، فمن المعروف أن كلمة IMAGINATION التي تم اشتقاقها من الأصل اللاتيني IMAGINATION لا علاقة لها بالمصطلح اليوناني الذي استخدمه العرب للإشارة إلى الخيال وهو كلمة PHANTASIA التي نقلها الفيلسوف الكندي، وعممها بشكل مبكر من ازدهار حركة الترجمة فخلط التوهم بالتخيل، ولم يتحرج من جاء بعده من استخدامها للدلالة على المعنيين، والأكثر غرابة من إضافات محي الدين بن عربي الجديدة إلى نظرية الخيال جرأته على إذاعتها في عصر كثرت فيه الكوابح الدينية والأخلاقية وضيق خلاله المتكلمون والفلاسفة مجال الإبداع، وربما كان محي الدين بن عربي مهيئاً أكثر من غيره للقيام بذلك الدور، فهو أجرأ من انتقد الفلاسفة والفقهاء بسبب تزمتهم، وضيق أفقهم، ومعاداتهم لكل جديد.

معارك فلسفية

«الذين ينكرون موهبة الخيال يجحدون قدرة الله». بهذا السلاح الضخم المرعب دخل محي الدين بن عربي المعركة ضد الفلاسفة والفقهاء، وتطرف في فهم الخيال إلى درجة قرر معها أن صاحب الكشف يستطيع أن يرى في المداد الذي في الدواة جميع ما فيه من الحروف والكلمات، وهذا النوع من الشطحات الخيالية لم نجده إلا عند «رامبو» في وقت لاحق، لكنه كان ضرورياً ومقنعاً على ما يبدو فلكي تزرع فكرة ما في أرض معادية، لابد أن تبالغ فيها. فإذا اقتنع الناس بنصف ما تقوله، أو صدقوه ربحت المعركة. ولن يضيرك أن تتخلى عن النصف الآخر مادامت الأمور تسير في الاتجاه المرسوم، ومقولة ابن عربي عن موهبة الخيال تذكرنا بموقف «بليك» الذي يعتبر الخيال قوة إلهية مقدسة تعمل



في حالة اتحاد بالأبدية، والصعوبة الكبرى في فهم الخيال عند محي الدين بن عربي تتمثل في تخليص الفن من الدين، وهي مهمة شاقة لاسيما إذا علمنا أن الشاعر المتصوف لم يكن يجيد التفريق بين ما يصدر عنه عن طريق التفكير وما يصدر عنه عن طريق الإلهام..

إني لأعرف روحا كان ينزل بي من فوق سبع سماوات بفرقان

ابن عربي ونظرية الخيال

إن بعض جوانب نظرية الخيال عند محي الدين بن عربي لا يمكن بحثها على أنها نشاط إنساني لإحدى الملكات البشرية المعروفة، لأنه يخلق لنا فكرة في غاية التضليل يسميها «الإسراء الروحاني» ويربطها بالقدرات الإلهية الخارقة التي لا نفهمها، وقد صادفت مشكلة التفريق بين الميتافيزيقي والأرضي عند ابن عربي العلامة الفرنسي «هنري كوربان» فعالجها في كتابه الهام «الخيال الخالق في تصوف ابن عربي». كما صادفت المشكلة نفسها الدكتور «محمود قاسم» الذي وضع كتاباً في مذهب ابن عربي درس فيه المسألة من منظور مختلف، إن لم نقل معاكساً، ففي الوقت الذي قرر فيه «كوربان» أن يبدأ

من الميتافيزيقي وصولاً إلى الإنساني اختار الدكتور قاسم أن يبدأ من الإنساني.

وعلى صعيد منهجي بحت لا يوجد ما يمنع من تبني الاتجاهين والتوحيد بينهما، لأن موضوع الخيال له جذره الحسي المرتبط بالأرض، وللصور والمعارف الإنسانية امتداداتها وتجلياتها الغامضة التي لا يمكن للعقل البشري أن يفهم بعضها، لارتباطها بالمعارف الحدسية والكشوفات الروحية. ومن هنا يصبح الجمع بين منهج «كوربان» ومنهج الدكتور «قاسم» ضرورياً لرسم الصورة الكلية للخيال عند المفكر والشاعر الذي صرف حياته في تطور نظرية الخيال، وقدّره حق قدره، فاعتبره في القمة من سلم المعارف الإنسانية، وتحسر على الحكماء والفلاسفة الذين أهملوا دراسة الخيال فنقصهم علم شموخ هذه المرتبة على سائر المراتب.

وقد بدأ محي الدين بن عربي تطويره لمفهوم الخيال على طريقة الشعراء الرومانسيين في القرن التاسع عشر في مرحلتهم التي سبقت إقامة العلاقة اللاشعرية بين الشعر والعلم على يد البرناسيين. فأقام القطيعة مع العقل، وشكك بطرقه وأساليبه، فلا هو قادر على الكشف عن طاقات الروح، ولا هو يصلح لتمهيد طريق الإيمان، ولا هو مؤهل للحكم على التجارب الوجدانية، وقد ذهب محي الدين بن عربي في ثورته ضد العقل ومبالغته في الإعلاء من شأن الخيال إلى حد التشكيك بأن يكون العقل صالحاً لتحصيل المعرفة: «ومن لا يعرف مرتبة الخيال، فلا معرفة له جملة. وهذا الركن من المعرفة إذا لم يحصل للعارفين فما عندهم من المعرفة رائحة».

ونميل إلى الظن أن ابن عربي قد وقف هذا الموقف أيضاً ليضع حاجزاً واضحاً بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، فما دام العقل هو طريقة أهل الظاهر في الوصول إلى الحقيقة، فلا بد أن يكون لأهل الباطن وسيلتهم، وقد وقع خياره بذكاء شديد على الخيال ليوازنه بقدسية مبدأ العقل عند أهل الظاهر:

لفؤادي أو فؤاد من له
مثل ما لي من شروط العلما
صفة قدسية علوية
أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها

و اطلب الباطن حتى تعلما

ابن عربي والخيال

اعتقد محي الدين بن عربي أن الخيال من القوى المعنوية التي تنمو بنمو الإنسان، وأعطاه دور الوسيط بين عالم الحس وعالم الغيب، وترك له المجال مفتوحاً ليضيف إلى قوته وطاقاته على الدوام، فجميع القوى المعنوية كالعقل والذاكرة والحافظة تولد مكتملة إلا قوة الخيال التي تبدأ صغيرة محدودة، ثم تكبر وتتطور كلما تقدم العمر وزادت التجارب، وحين جاء محي الدين بن عربي إلى توصيف الخيال تابع إخوان الصفا في الاعتقاد بطبيعة النورانية: «الخيال أحق باسم النور من جميع المخلوقات النورية، فنوره لا يشبه الأنوار، وبه تدرك التجليات، وهو نور عين الخيال لا نور عين الحس». ونظراً لهذه الطبيعة النورانية نفى ابن عربي عن الخيال إمكانية الخطأ، لأنه ليس مصدراً للأحكام، وإذا كانت هناك أخطاء فمن الواجب أن ننسبها إلى العقل الذي هو مصدر الحكم والتمييز وهو مصدر القصور في الوقت ذاته.

وعلى هذا الصعيد يجب ألا يغيب عن بالنا أن أوجه اللقاء بين الصوفية العربية والرومانسية الغربية كمصانع بشرية كبرى للأحلام ومزارع رائعة لتجريب عمل الخيال قد سمحت بتطوير نظرية الخيال في اتجاه مواز عند الطرفين. لقد فرق محي الدين بن عربي بين الإدراك الخيالي، والإدراك الحسي، ووضع الإدراك الخيالي في مرتبة أعلى وأقام الفروق بين ما ندركه بعين الحس، واستطاع أن يفرق بطريقة فريدة بين خيال المبدعين وخيال المجانين والممسوسين، ولكنه لم ينجح هو نفسه من ممارسة خيالات المهلوسين HALLUCINATION فقد زعم ذات مرة أنه أسرى به الخيال ليشاهد العرش. بل ووصف قوائم العرش النورانية والطيور الملونة التي تلهو وتلعب في ظلال العرش، وذهب مرة أخرى إلى القول أنه رأى الذات الإلهية.

شطحات وهلوسات

هذه الشطحات كلها قد تجد تفسيرها عند «يونغ» الذي يعيد أمثالها إلى الرموز التي تمس وتراً خاصاً في الذهنية السامية، والحقيقة إن هذه الشطحات بالذات تمنعنا من القول بأن ابن عربي كان يفرق بين الخيال

والوهم كما فعلت النظريات الحديثة، بجانب هذه الشطحات التي لا تجد تفسيرها السهل عند العاقلين قدم محي الدين بن عربي مجموعة أفكار ذات قيمة استثنائية، فآمن بأن الخيال يعمل أثناء النوم، وشبه النفس التي تطلع على ما خزنته من الصور الخيالية أثناء النوم بالملوك الذين يدخلون خزائنهم في أوقات فراغهم ليعيدوا اكتشاف ما فيها، ويذكرنا هذا المنحنى بناقد الرمزية «تندال» الذي ذهب إلى الإقرار بأن العالم المرئي ليس سوى مخزن للصور والإشارات التي تظل بحاجة إلى من يكتشفها إلى أن يأتي الخيال ويهيئ لها مكانها ويضفي عليها قيمتها.

إن الإنجاز الكبير الذي قدمه محي الدين ابن عربي يتمثل في ابتكار علم الضربة أو الرمية أو النظرة، ويقصد به الحدس الخيالي الذي يسطع دون سابق إنذار، ليكشف حقائق الأشياء الغامضة في لمحة عين، وإلى هذا العلم بالذات يدين المبدع والمخترع بإنجازاته. ففي لحظة من اللحظات يتوقف العقل، وتصبح المعرفة الحدسية عن طريق الرمية هي الوسيلة الوحيدة للكشف، ويصبح الحدس الخيالي الذي يمكن أن نعتبره عنوان العبقرية، والقاسم المشترك بين الشعراء والعلماء هو الطريق الوحيد لإنجاز الأعمال الموصوفة بالجدة والابتكار، وقد مهد علم الرمية عند ابن عربي لتطوير نظريات الحدس الخيالي، لاسيما عند «بودلير» و«رامبو» الذين نستطيع أن نجد بقليل من التدقيق جذور كشوفاته في الشطحات الابن عربية التي أهملنا دراسة تأثيرها على نظرية الخيال الغربية المعاصرة التي تدين لشاعرنا ومفكرنا العربي بعمودها الفقري.

المصادر والمراجع

١- **رسائل الكندي، ٢٠، ص ١٦٧.**

٢- **محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ٣٢٠، ص ٤٥٦**

٣- **المراجع السابق، ص ١٠٩.**

٤- **المرجع (٢)، ص ٨٠٥.**

٥- **محي الدين بن عربي، ترجمان الأشواق، ص١١**

٦- **المرجع محي الدين بن عربي ٢٠، ص٢٠٦.**

٧- **محي الدين بن عربي، ٢٠، ص ٤٣٦.**

٨- **محي الدين بن عربي**
JUNG C. THE INTEGRATION. p60.

9- TINDEL W.T. THE LITERARY SYMBOL P.38.